

## طرق الخلاص من

# الذنوب

## و تكفير السيئات

تَهَاوُنَ، وَيُوطِنُهَا عَلَى الْعَمَلِ يُضَيِّعْ مِرَاقِبَةَ اللَّهِ وَعِلْمَهُ وَمِحَاسِبَةَ نَفْسِهِ، إِذْ هُمَا مِنْ طُرُقِ إِصْلَاحِهَا وَتَأْدِيبِهَا وَتَطْهِيرِهَا، فَإِلْزَامُ الْمُسْلِمِ نَفْسَهُ بِمِرَاقِبَةِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَتِمَّ لَهَا الْيَقِينُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلَيْهَا رَقِيبٌ؛ فَهَذَا مَعْنَى إِسْلَامِ الْوَجْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [لقمان: ٢٢]، كَمَا أَمَرَ بِمِحَاسِبَةِ النَّفْسِ عَلَى مَا هَدَمَتْ لِعَدِهَا الْمُنْتَظَرِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَتَسْتَظِرُّ نَفْسُ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٨) [الحشر].

هَذَا، وَعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَجَاهِدَ نَفْسَهُ بِالتَّأْدِيبِ جِهَادًا مُتَوَاصِلًا حَتَّى تَطْمَئِنَّ نَفْسُهُ وَتَطْيَبَ لِيَكُونَ أَهْلًا لِحُبَّةِ اللَّهِ وَرِضَاهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩) [العنكبوت].

هَكَذَا دَرَبُ الصَّالِحِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَسْعَوْنَ جَاهِدِينَ إِلَى الْخُلَاصِ مِنَ الذَّنُوبِ وَالْمَعَاصِي بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَيَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ، وَيَحَاسِبُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى تَقْرِيطِهَا وَيَجَاهِدُونَهَا عَلَى التَّقْوَى وَيَنْهَوْنَهَا عَنِ السُّوءِ وَالْهَوَى مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (١٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (١١)﴾ [النازعات].

وَأَخْرَ دَعَوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَآخُوَانِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا.

لَقَضِيَّةُ الشَّيْخِ  
الدَّيْمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ  
أَسَازُ لِقَضِيَّةِ الْعِلْمِ وَالْإِسْلَامِ بِجَامِعَةِ الْبَزَّازِ



www.ferkous.com  
lition@ferkous.com

الجزائر في: ٢٠ رجب ١٤٣٦ هـ  
الموافق ل: ٢٥ أغسطس ٢٠١٥ م



غَيْرَ أَنَّ الذُّنُوبَ - وَإِنْ كَانَتْ مَحَلَّ مَغْفَرَةٍ - إِلَّا أَنَّهُ يُسْتَتْنَى مِنْهَا الشَّرُّ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لِمَن شَرَّ بِهٖ وَيَغْفِرُ لِمَن دُونِ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، لذلك كان التَّوْحِيدُ أساسَ المَغْفَرَةِ وَسَبَبُهَا الْأَعْظَمُ، وَمَنْ هَدَى التَّوْحِيدَ هَدَى الْمَغْفَرَةَ، وَمِنْ جَاءَ مَعَ التَّوْحِيدِ بِضَرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا لَقِيَتهُ اللَّهُ بِغَرَابِهَا مَغْفَرَةً، عَلَى أَنَّهُ مَوْكُولٌ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَخَذَهُ بِذُنُوبِهِ، فَمَنْ أَنَسَ مِنْ مَالِكِ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أَتْبَايَا، يَا ابْنَ آدَمَ تَوَلَّغْتَ ذُنُوبَكَ غَنَانُ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفِرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أَتْبَايَا، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ تَوَلَّغْتَ ذُنُوبَكَ بِضَرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تَشْرُكَ بِي شَيْئًا لَا أَتُبِّحُكَ بِضَرَابِهَا مَغْفَرَةً»<sup>(١)</sup>.

هَذَا تَتَصَاعَرُ الذُّنُوبُ أَمَامَ نُورِ تَوْحِيدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَعَاقِبَةُ الْمَذْنَبِ مِنَ الْمُتَوَحِّدِينَ الْجَنَّةُ وَعَدَمُ الْخُلُودِ فِي النَّارِ، فَلَا يُلْقَى فِيهَا كَمَا يُلْقَى الْكَفَّارُ، وَلَا يَبْقَى فِيهَا كَمَا يَبْقَى الْكَفَّارُ، فَمَنْ وَجَدَ اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ وَقَامَ بِشُرُوطِ التَّوْحِيدِ أَوْجَبَ ذَلِكَ لَهُ مَغْفَرَةً مِثْلَ سَلَفٍ مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّهَا وَنَجَا مِنَ النَّارِ بِالْكَلِيَّةِ، فَالْقَوْلُ: «قُلْ يَكُونُ الْآخِرُ أَمْرًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَنْفَعُهُمْ لَا تَنْفَعُهُمْ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» [الزمر: ٥١]، ذَلِكَ لِأَنَّ الْمَغْفَرَةَ الْمُطْلَقَةَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَتَضَمَّنُ إِزَالَةَ أَثَرِ الذُّنُوبِ وَالْقَوَايِمَ مِنْ شَرِّهَا.

هَذَا، وَمِنْ ثَمَرَاتِ الْإِسْتِغْفَارِ: اطْمَئِنَّانُ الْقَلْبِ وَانْشِرَاحُ الصَّدْرِ وَجَلَاءُ الْهَمِّ وَالْعَمِّ، وَالِاسْتِيشَارُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ، وَمِنْ ثَمَرَاتِ الْإِسْتِغْفَالِ بِهِ شُغْلُ لِسَانِهِ عَنْ غَيْرِهِ، وَانْبِعَاطُ مَعَانِي الصَّفْحِ وَالْعَفْوِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ فِي نَفْسِهِ.

ثَالِثُهَا الْإِسْتِكْثَارُ مِنَ الْحَسَنَاتِ، ذَلِكَ لِأَنَّ السَّيِّئَاتِ تَغْفَرُ بِالْحَسَنَاتِ

(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «الدَّعَوَاتِ» (٢٥٤٠)، مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السَّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ» (٢٤٩/١).

لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَكْبَرُ الْمَسْكَوَّةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرَدُّكَ وَمِنْ أَلْبَلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِمُنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرُنَا لِلذِّكْرِ» [هود: ٥٥]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقُولُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا الْبَاطِلَ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلِكْ يَلِكَ أَشَدًّا» [٥٨] يَضَعُ لَهُ الْمَكْدَابَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَخَلْدَ فِيهِ، مُهَيَّأً [٥٩] إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا [٦٠]، [انفِرْقَانًا]، فَالْحَسَنَاتُ تَكْشُرُ كَثِيرًا مِنَ السَّيِّئَاتِ وَيُكَدِّهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَلِكْهُ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْأَعْلَى [٦١] جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى [٦٢] [طه]، وَمِنْ ظَوَاهِرِ هَذِهِ النُّصُوصِ الْفَرَاغِيَّةِ بَيِّنٌ أَنَّ

«الْحَسَنَاتُ» شَامِلَةٌ بِإِذْهَابِ عُمُومِ السَّيِّئَاتِ - صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا -، غَيْرَ أَنَّ السَّيِّئَةَ الْكَبِيرَةَ تَحْتَاجُ إِلَى حَسَنَةٍ مِثْلَهَا لِتَكْفِيرِهَا وَمَحْوِهَا كَالشَّرِّكَ لَا يَكْفُرُهُ إِلَّا التَّوْبَةُ مِنْهُ وَالدَّخُولُ فِي الْإِسْلَامِ، إِذَا الْإِسْلَامُ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ، وَعَلَيْهِ فَالِاسْتِكْثَارُ مِنَ الْحَسَنَاتِ أَمْرٌ مَرْغُوبٌ فِيهِ لِكُونِهِ مَدْهَبًا لِّلْسَيِّئَةِ، لَكِنْ بِشَرْطِ عَدَمِ الْإِكْتَالِ عَلَيْهَا لِلْقَوَايِمِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَظَالِمِ وَالذُّنُوبِ، ذَلِكَ لِأَنَّ السَّيِّئَةَ فِي مَقَابِلِ الْحَسَنَةِ تَأْكُلُهَا أَوْ تَنْقُصُ أَجْرَهَا فَلَا يَنْتَفِعُ بِهَا صَاحِبُهَا وَلَا يَبْلُغُ بِهِ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى، فَقَدْ ثَبِتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَنْتَرُونَ مَا الْمَقْلُوسُ؟» قَالُوا: «الْمَقْلُوسُ فِينَا مَنْ لَا دَرَهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ». فَقَالَ: «إِنَّ الْمَقْلُوسَ مَنْ أَمَّتَنِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَكَذَّبَ هَذَا وَآكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا، فَيُطْعَمُ هَذَا مِنْ خَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ خَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنَيْتَ حَسَنَاتَهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»<sup>(١)</sup>. فَالْحَدِيثُ صَرِيحٌ فِي أَنَّ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «الْمُسَانِقَةِ» (٧٥٨١)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الحسنات تذهب السيئات. صغيرها وكبيرها. وتعلمها. ومن جهة أخرى تنقص السيئات الحسنات وتأكلها حتى إذا فُتيت الحسنات أخذ الرجل بذنوبه وطُرح في النار.

هذا، ولا تعارض مع قوله ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفّرات ما بينهنّ إذا اجتنبت الكبائر»<sup>(٥)</sup>. فإنّ مضمون الحديث خاص بما تكفّر الصلوات الخمس والجمعة ورمضان من الصغائر، أمّا النصوص المتقدمة فاعمّ من محتوى هذا النصّ فهي شاملة للكبائر أيضاً، ولا منافاة في العمل بمقتضى العام والخاص كما هو مقررٌ أصولياً.

ومن الحسنات المكفّرات: الجهاد في سبيل الله، والنصيحة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على القضاء، والحب في الله والبغض في الله، والتطوُّع في الصلاة والصدقة والصيام، وغير ذلك من الأعمال الصالحات.

هذا، والاستكثار من الحسنات ضرب من ضرب التوبة والاستغفار، لذلك تقرن الأعمال الصالحة بالتوبة في العديد من الآيات القرآنية، فلا تعارض بين وجوب التوبة والاستغفار مع القول بتكفير السيئات بالحسنات، لأنّ التوبة والاستغفار محلّها القلب واللسان والجوارح، والعمل الصالح جزء منها، لذلك فمن استغنى بظاهر الحسنات عن حقيقة التوبة والاستغفار فقد أسقط عن نفسه فرض التوبة والاستغفار، ورضي قلبه به واعتقده، وهذا لا شك في بطلانه من جهة المعتد بالعمل، وأنه من الكبائر العظيمة وطريق من طرق الكفر، لأنّه يتضمّن الإيمان ببعض الشريعة والكفر ببعضها، وقد جاء في الحديث: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرًا فَهُوَ رَدٌّ»<sup>(٦)</sup>.

(٥) أخرجه مسلم في «الطهارة» (٢٢٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) أخرجه مسلم في «الأضحية» (١٧١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرجه البخاري معلقاً (١٠٧/٩).

وعلى التائب أن يأسب بين الحسنة والسيئة فلا يترك الفرائض والواجبات بدعوى فعل الحسنات المكفّرات، فإنّ تكفير ترك الفرائض والواجبات يحصل بتداركها والقيام بها إن لم يستقم وجوبها أو يتعدّل تداركها، أمّا الاستمرار على تركها مع الاكتمال على تكفيرها بالعمل الصالح من غير جنسها فذاك سبيل المغرورين ممن خدعهم الشيطان بمكره وصدّمهم عن سبيل المتقين.

رابعها الأذى الذي يلحق المؤمن، فالأذى الذي يُصاب به المؤمن في نفسه وماله وأهله هو من مكفّرات الذنوب والخطايا، كما ثبت في «الصحيحين» قوله ﷺ: «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلَا نَصَبٍ وَلَا سَفَمٍ وَلَا حَزَنٍ حَتَّى الْهَمُّ يَهْمُهُ إِلَّا كَفَّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ»<sup>(٧)</sup>. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لَا تَزَلْ: «مَنْ يَعْمَلْ سَوْءًا يُجَزَّ بِه» [النساء: ١٢٢] بِلَهْتِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِيعَةً شَدِيدًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَارْبُوا وَاسْتَدُوا فِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةً حَتَّى التَّكْبِيرَ يُكْبِتُهَا أَوْ الشُّوْكَةَ يُشَاكُّهَا»<sup>(٨)</sup>. وثبت. أيضاً. من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَدَى مِنْ مَرَضٍ فَبِنَا سَوْءًا إِلَّا خَطَأَ اللَّهُ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَزَقْفًا»<sup>(٩)</sup>. والأجر والثواب يكون بقدر المصيبة والنصب، فقد ثبت من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لَكَ مِنْ الْأَجْرِ عَلَى قَدَرٍ نَصِيبٌ وَتَقَبَّلَكَ»<sup>(١٠)</sup>.

هني طرق الخلاص من الذنوب والخطايا أملٌ عظيم في فضل الله العميم، حيث يبعث في نفس المسلم الأمل المشرق، ويحملها على فعل الخيرات وترك المنكرات، ويدفعها إلى الطاعة من غير

(٧) أخرجه مسلم في «الزهد والصلوة والآداب» (٢٥٧٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٨) أخرجه مسلم في «الزهد والصلوة والآداب» (٢٥٧٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٩) أخرجه البخاري في «المرضى» باب وضع اليد على المريض (٥٦٦٠)، ومسلم في «الزهد والصلوة والآداب» (٢٥٧١)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(١٠) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (١٢٣٢)، وصحّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٢١٦٠).